فإذا جاء اللفظ فى نسبة فلابد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشىء ، ولكننا قبل أن نأتى بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى فى ذاته ، وهذه اسمها معانى اللغة ، وتضم من خلالها لفظا إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهى ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أى أمر منسوب إلى أمر .

والعلم ـ كما قلنا ـ هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد فى قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشىء متيقنا وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون » أى تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين فى « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم

إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، فأوضح لهم ﷺ مُطَمْئناً : إن ذلك الظلم هو الذى قال الله فيه :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⦗١٣⦘ ﴾ (سورة لقمان)

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلاّ الله ، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هى دائرة الإيمان العقدية .

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هى منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ⦗١⦘ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ⦗٢⦘ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ⦗٣⦘ ﴾ (سورة العصر)

والعطف فى قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يقتضى المغايرة ، فالإيمان شىء وعمل الصالحات شىء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعى فى القلب ، ولكن العمل ناشىء عن الالتزام الذى شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ، فإن وجدت صفة فى الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة فى الله فى دائرة «ليس كمثله شىء» . فلا قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شىء من ذلك فى اليقين فهذا ظلم واقع فى الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أى فعل لا بد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذى لا يمر ببالك

فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر فى الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزى لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع فى هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]

« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)[2]

« حديث شريف »

و « ذى بال » أى كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لابد أن تضعوا هذا الأمر فى بالكم لأن الفعل الذى لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك ـ بدون أمر ـ أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شىء فى قصبته الهوائية غير الهواء ؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشىء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذى تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّى الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك فى ذلك شىء ؟ . إنه ليس لك إلاّ تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التى وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة فى الأرض لتغذى النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة فى البذرة لتمتص شيئاً ينمّى جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شىء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه :

---

(١) رواه عبدالقادر الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أى شىء ذى بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس فى قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أى شىء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن فى قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضى ليحكم بين الناس حُكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذى أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هى القدرة التى جعلتك تحكم على الأشياء أن تنفعل لك ؟ لابد أن تقول إذن : باسم الله الذى سخر لى هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتا ومختلقا ومدعيًا أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس فى سلطتك ولا فى قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبَّس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى » بل اذكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ؛ لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال فى شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨١ من سورة القصص »

أين ذهب علم قارون الذى جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شىء فيك من هذه المسألة

فاعلم أنك لَبِست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذي تعمله مبتدئاً بـ﴿ بسم الله ﴾ إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا في عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن « أولئك لهم الأمن » أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، وزحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أي إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائما في صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دفَّ[1] نعليك بين يديّ في الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندي من أنّي لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي)[2] .

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[3] .

---

(١) الدف بالفتح : صوت النعل وحركته على الأرض .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري .
(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقاً ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن في الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة .

ولقائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون في طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة في عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأى عمل يأخذ نتيجته ، لكنه لا يأخذ البركة في العطاء .

وما هي البركة في العطاء ؟ البركة في العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أي إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن في جزئيات أعمالهم والأمن المتجمع من جزئيات أعمالهم يعطى لهم الأمن في الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة في ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد

مهمتك ، فسبحانه هو الذى خلقك ، وفى عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذى يحدد لها الغاية منها ؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذى يشقى بالتجارب إذن ؟

فى الابتكارات العلمية المعملية المادية التى تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذى يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التى تتعب العالم يأتى التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدى إذن ؟

إن المهتدى هو من يعرف الغاية التى يسعى إليها ، والوسيلة التى تؤهله إلى هذه الغاية . وإذا حدث له عطب فى ملكات نفسه ، يستعين فى إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التى تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون فى خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى
ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

والحجة هى البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية فى الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية فى

الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نفياً أو إثباتاً فهى تهريج ، وينحصر الأمر فى أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصيلة هى الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لابد أن يكون أعز منك ومن خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا فى قضية تناظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوت الجماهيرى يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف .

والذى جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، ينقدون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعى .

ولذلك يقول ربنا :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

﴿من الآية ٤٦ سورة سبأ﴾

أى أن تجتمعوا وفى وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فليناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان ليبحثا مسألة وفى بالهما الله فقط - إلا وينتهيان فيها إلى رأى موحد . ولذلك جاء التفاوض السرى فى العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة الإيمانية :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿سورة الأنعام﴾

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاجّهم فى الكواكب والقمر والشمس والتماثيل ،

وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمروذ حين أراد أن يناظره فى قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهى فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذى لا يستطيع منه خلاصا ولا فكاكا ، فلا يغلبك ؛ فالملك النمروذ قال له :

﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طريق ، فقال الله :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

فماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه :

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

«من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة»

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

«سورة الأنعام»

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع ؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع لدرجة موضوعك ، ورفع أيضا لموضوع عملك . وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء

إلا عن علم ؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هى عن حكمة وعلم لصالح الخلق ؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خَلْق الخلق وإيمانهم لا يزيد فى ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شىء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجرى أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علته يريهم جل وعلا الحكمة فى الفعل الذى كان غير مقبول لهم ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أزلاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاه على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فسبحانه يعلم أنه ليس فى صالح العبد أن يلبى له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾

« سورة الإسراء »

إن العبد يقول : يا رب اصنع لى كذا ، يسّر لى هذا الأمر ، وهو خير فى عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

« من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء »

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ؛ فالصالح يجريه عليهم .

﴿ نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ وكلمة ﴿ رب ﴾ حينما ترد لابد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتى كلمة « الألوهية » فلنعلم أنها للتكليف ؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهى ، ولكن الرب هو من خلق وربّى ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شىء ، وعطاء الألوهية شىء آخر ،

وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ؛ لأن الله هو الذى استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل فى « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل فى منطقة الاختيار . فالذى يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستنباط فى الكون من عطاء الربوبية .

ويقول الحق :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثانى لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهِبَة افهم أنها ليست هى الحق ، فالهبة شىء ، و « الحق » شىء آخر . الهبة . إعطاء معطٍ لمن لا يستحق ؛ لأنك حين تعطى إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقى له حق عندى إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شىء هِبة منى . والقمة الأولى فى الهبات والعطايا هى قمة السيادة الأولى فى الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعيه الذكر والأنثى ، حيث الذريَّة من البنين والبنات . يقول سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ « سورة الشورى »

فهبة الأولاد لا تأتى من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنّ اللقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه :

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

« من الآية ٥٠ من سورة الشورى »

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكى لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك ؛ فمن يفهم فى الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى العقم هو هبة أيضاً ؛ فالذى يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب فى حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك . ومن يرض بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبعث له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه ؛ لأنه رضى . إذن لابد أن تأخذ الهبة فى العطاء ، والهبة فى المنع .

والحق يوضح : أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميّت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب فى ولد يصل اسمه فى الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حفيد يكون الجد قد ضمن نفسه جيلاً آخر . ولكن لنعرف قول الحق :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

« سورة الكهف »

وبقاء الذّكْر فى الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان فى الآخرة !!

ونلحظ أن الحق قال فى موقع آخر :

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

« من الآية ٥ والآية ٦ سورة مريم »

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال : ﴿ كلا

هدينا ﴾ أى أنهما كانا من أهل الهداية . ﴿ ونوحا هدينا من قبل ﴾ أى أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل . ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

ويتابع الحق :

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلا . وقد جمعوا فى قول الناظم :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح . وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين : داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكاً رسولاً ؛ لأن المَلِك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان فى حاجةإلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفى الحديث : « أفملكا نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً »[1] فاختار أن يكون عبدا رسولا ؛ لأن الملك يأتى بسلطانه وبماله ، وقد يطغى .

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أمّا أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهى الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبى فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميّز شخصى . وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان فى النهاية . وموسى وهارون أخذا شهرة الأتْبَاع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقى لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء .

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل فى ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية
مستحدثات وللأحساب آباء

---

(١) رواه أحمد ٢٣١/٢ .

والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية ! .

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شىء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذريته . . . . » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية نوح ، من أب أم من أم ؟ .

قال له : من أمّ . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى شىء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذى خلق ، وهو الذى يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أى شىء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل فى الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أى واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنّه قد يكون مرادًا غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كونياً ، ومراداً شرعياً . وما دام الشىء فى ملك الله فهو مراد لله ، والمراد الشرعى هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كونى ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تعطى ابنك جنيهاً ، والجنيه قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف فيه ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشترى « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذى أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ؛ وذلك بأن يعشّقهم فى العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت منى ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين فى التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله و لو أشركوا لحبط عملهم و ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و « الحبط » هو الإبطال للعمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة ؛ أي أنّه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين فى الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقى إلى أن تقوم الساعة .

وَمَنْ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ هم أهل المدينة أى الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أى إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير فى الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لابد أن يبقيها كحجة على الخلق .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذى يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له ـ سبحانه ـ وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربى الجميع ، وراعى الجميع ، ورزّاق الجميع . وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه